النتاج الجديد

العروبة اولاً

بقلم ساطع الحصري

دار العلم للملايين – بيروت ، ١٩٢ ص

•

عندما يقرأ أحدنا للأستاذ الكبير ساطع الحصري يشعر بالارتياح العميق . إنه لا يخرج من قراءته له ، كما يخرج من قراءة كثير من مفكرينا ، قلقاً غير مطمئن . ذلك أن في المنطق السليم دوماً مأوى روحياً جميلا . والمنطق ، المنطق الواضح ، أهم ما يسم كتابات الأستاذ الحصري. وعندما نذكر المنطق نعني في الوقت نفسه ما وراءه من روح علمية نيّرة تأبى العوج ولا ترضى عن الدقة بديلاً .

ولئن كان هذا التفكير المنطقي العلمي بيّناً لديه دوماً ، فهو أبين وأشرق حين نوازن بينه وبين التفكير المرسل المهمل الذي يحاول ان ينقده هو . وليس من قبيل الصدفة ان نرى اكثر كتابات الاستاذ تتخذ شكل نقاش لأفكار غيره . فهو لا يقيم على عوج منطقي ، ولا يسكت عن اضطراب الفكرة وتهافت الرأي .

وهذا الفراق بين أفكاره الديكارتية إلى حد كبير ، وبين أفكار أولئك الذين ينقدهم ، ممن تختلط الأفكار المتناقضة في أذهانهم وتزدحم المعاني المصطرعة في عقولهم ، نجده جلياً واضحاً في الكتاب الذي يعنينا : « العروبة أولاً » .

والحق ان قارىء هذا الكتاب ينفض عن قراءته وفي نفسه الفكرة التالية تراوده : إن الرسالة القومية الأولى هي تعويد الناس على أصول التفكير الصحيح . وما يشكو منه أبناء العروبة قبل كل شيء هو افتقارهم للفكر القويم الموجه لسلوكهم ومشاعرهم . إن مؤلفه يدرك تمام الادراك أن اول خطوة في سبيل تحقيق الكيان العربي الموحد أن نكوّن في الأذهان أفكاراً واضحة موحدة حول هذا الشأن . أفلا يبث منذ الصفحة الأولى تلك الفكرة الغالية التي يجيب بها على من يسألونه عن الطريقة العملية لتحقيق الوحدة العربية : « اول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية – في الأحوال الحاضرة –

النذامى :

هذا محال سندباد أن يخوب في البلاد
إنّا هنا نضاجع النساء
ونغرس الكروم
ونعصر النبيذ للشتاء
ونقرأ (الكتاب) في الصباح والمساء
وحينما تعود نعدو نحو مجلس الندم
تحكي لنا حكاية الضياع في بحر العدم

٥. الميلاد الثاني

في الفجر يا صديقتي تولد نفسي من جديد
كل صباح احتفي بعيدها السعيد
مازلت حياً ! فرحتي ! مازلت والكلام والسباب والسعال
وشاطىء البحار ما يزال يقذف الأصداف واللآل
والسحب ما تزال
تسحّ .. والمخاض يلجىء النساء للوساد
ويلعب الأطفال فوق أسطح البيوت
لعبة العريس والعروس والثبات والنبات
والورد في خد البنات
وعند شط النهر عاشقان سارحان
لله ما أحلى عيون العاشقين حين يبسمون
ويقسمون
بحرمة الشجون
وبالليالي المثقلات .. وانتفاضة الحنين
وبالسواد في العيون
العهد لن يهون ..
صديقتي ! عمي صباحاً .. هل ذكرت نزهة الجبل ؟

٦. الى الأبد

الرخ مات .. لا ترع .. فالشاه ما يزال
والشاه بالبيادق التأم
إلى اللقاء – وافترقنا – نلتقي مساء غد
لنكمل النزال فوق رقعة السواد والبياض
وبعد غد .. وبعد غد
سنلتقي .. إلى الأبد .

القاهرة

صلاح الدين عبد الصبور

من الجمعية الأدبية المصرية

هو إيقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الايمان بوحدة هذه الأمة » ؟

والأستاذ الحصري يقف هنا – شأنه في مناسبات أخرى – عند فكرة عزيزة عليه ، وينبغي أن تكون عزيزة على كل مفكر في نظرنا . وهي أن الفكرة قوّة[1] ، وأن الرأي الصحيح عندما يختمر في ذهن صاحبه لا بدان ينقلب إلى سلوك وعمل . وأن السلوك ما هو إلا الفكرة في حال تحركها وصيرورتها إلى فعل . وبهذا يرد أقوى رد على اولئك الذين يحلو لهم أن يقيموا حدوداً فاصلة بين النظر والعمل ، بين التفكير النظري والتفكير العملي . فلقد ذاعت بين أوساط مفكرينا نزعة – هي واحدة من تلك المزالق التي يحدثناعنها الأستاذ في كتابه – قوامها أن الواجب يلزمنا بالابتعاد عما يدعونه بالتفكير النظري ويدعونا الى الاقبال على ما يسمونه بالتفكير العملي . ويفهم أصحاب هذه النزعة التفكير النظري على غير معناه الحقيقي ، كما يفهمون التفكير العملي على غير حقيقته . فهم يجعلون التفكير النظري غالباً مرادفاً للتفكير الأجوف الفارغ ، ويجعلون التفكير العملي ذلك التفكير الذي لا يأبه للبحث النظري العلمي ويمضي في سلوكه دون ان يقلب الأفكار في ذهنه . وكلا الفهمين للتفكير النظري والعملي خاطيء . فالتفكير النظري الصحيح ليس تفكيراً أجوف ، ولا هو تفكير مباين للواقع والعمل : انه يستقي خطوطه وبنيانه من الواقع نفسه ومن التجربة العملية نفسها . سوى أنه ينظم هذا الواقع في جهاز فكري واضح ، ويضع التجربة ضمن اطار عقلي مستقيم . والتفكير العملي كذلك ليس ذلك التفكير الهارب من العقل ، السائر في سلوك غرزي سطحي ، وانما هو ذلك التفكير الذي يستمد جذوره من الفهم العقلي النير ، والذي يمتاح قوته من وضوح الخطة الفكرية وسلامة الصورة الذهنية . وبهذا تزول الحدود بين التفكير النظري المزعوم والتفكير العملي المزعوم ، وتصبح الخبرات كلها خبرات عقلية ، والتجارب تجارب ذهنية تنقلب عند نضجها واكتمالها الى عمل وحركة .

ويرتبط بهذا المزلق الخطير من مزالق الفكر – وهو مزلق نجده شائعاً في بلادنا اليوم – مزلق لا يقل عنه خطراً وشيوعاً ، هو مزلق المثالية والواقعية . وقد سبق للأستاذ الكبير ان فنّد هذا المزلق أحسن تفنيد[2] . اذ ردّ على مزاعم أولئك الذين يتهمون بعض الأفكار بالمثالية ، جانحين بهذه الكلمة إلى معنى يقربها من الخيال والوهم . وبيّن إذ ذاك فكرة أخرى عزيزة على المفكرين الواعين وهي أن الواقعية الحقيقية في المثالية نفسها ، وأن الذي خلق التاريخ وخلق الأمم وأحدث الانقلابات الحقيقية في حياة الشعوب هم اولئك المفكرون الذين كان ينعتهم أبناء عصرهم بأنهم مثاليون . بينما لا يستطيع الواقعيون السطحيون أن يجاوزوا حدود ما هم فيه ولا يقوون على خلق شيء جديد .

والحق إن أقتل ما نواجهه في حياتنا العربية اليوم ذلك الاضطراب في فهم المثالية والواقعية . أفلا يتخذ بعضهم من نعت المثالية تهمة يتهمون بها من ينادون بالوحدة العربية ؟ أفلا يتذرع بها الكثيرون لمحاربة كل فكرة فيها بصيرة ونظرة إلى أمام ومجاوزة للمألوف وارتفاع عن اللصوق بالطين ؟ أفلا يلجأ اليها كثير من الحكام في بلادنا العربية لتبرير ما يقومون به من أخطاء وخيانات في بعض الأحيان ؟ بل إن هذا المزلق يكاد يؤدي إلى خلق مفهوم خاطيء عن الذكاء نفسه : ألسنا نجد نعت الذكاء (والذكاء العملي فيما يقولون) يلقى في بلادنا على من عرف أن يكون سطحياً في حياته ، لاصقاً بحمأه الأرض ، مبتعداً عن كل ومضة من ومضات النفوس الفنية ؟ أفلا نضع مقياساً للحقيقة في كثير من الأحيان النجاح الموقت ؟

إن من حقنا فيما نعتقد أن نعتبر هذا الموقف الذي يقفه بعض الناس اليوم من المثالية والواقعية انتقاماً من روحنا العربية الأصيلة . فاصحابه يذهبون إلى الطرف المناقض تماماً للنظرة العربية . ولئن كنا ننكر المثالية المفرقة التي تخرج عن حدود العمل والتطبيق ، فنحن ننكر في الوقت نفسه الواقعية التي تخاف من كل إرهاص بفكرة مقبلة ، ومن كل استباق للحاضر .

من خلال هذه النظرة المقوّمة للأخطاء الفكرية الشائعة يتحدث الأستاذ الحصري عن الوحدة العربية في كتابه . ومن منظار هذا الفكر المنطقي الحاد ينظر إلى أقوال بعض رجالات العرب ممن يلعبون دوراً كبيراً في قضية الوحدة هذه . إنه ينتقد أجمل نقد فكرة طالما رددها الكتاب نقلاً عن سعد زغلول إذ يروي الأستاذ عبد الرحمن عزام أنه حين أراد أن يتكلم عن الوحدة العربية قاطعه سعد زغلول سائلاً : « اذا جمعت صفراً إلى صفر فصفر ، ماذا تكون النتيجة ؟ » . فهذا القول قد تلقفه كثير من الكتاب والمفكرين وأصبح من الأفكار السائرة

١ نترجم هنا كلام الاستاذ إلى لغتنا .

٢ إرجع خاصة الى كتابه عن القومية العربية بين أنصارها وخصومها .

التي نالت حظ الذيوع والانتشار « لماتتضمنه من تشبيه طريف » كما يقول الاستاذ الحصري . ولقد قيض لنا أن نسمع من كثير من مفكري مصر إشارات إلى هذا القول الطريف الذي يسحر الالباب منذ الوهلة الاولى فيشل فيهـا « نزعة البحث والاستقصاء » . ومما نذكره أن هذا القول كان محور محاضرة القاها المرحوم الدكتور محمود عزمي في كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول عام ١٩٤٤ . ولهذا فالاستاذ الحصري حين يمحّص هذا القول يرد في الواقع على فكرة طالما أفسدت رأي المعنيين بالوحدة العربية عندنا ، من خصوم وأنصار . وأجمل مـا في رده إيضاحه لذلك الامر الذي يشير اليه علماء الاجتماع دوماً ، وهو أن الاجتماع لا يشبه الجمع ، وأن اجتماع عدد من الافراد لا يؤدي الى نتيجة هي مجموع ما عند هؤلاء الافراد من قوى ، وإنما يؤدي الى خلق تفاعل جديد وقوة جديدة . فطبيعة الاجتماع تخلق شيئاً جديداً وحوادث جديدة وقوى زائدة عما لدى الافراد . والاجتماع ليس مزجاً وانما هو تركيب كيميائي . السنا في حاجة الى مثل هذه المحاكمة المنطقية العلمية عندمـا نناقش مسائل الوحدة العربية ؟ السنا في حاجة الى أن نؤمن بما يحدثه تفاعل أبناء الامة العربية من قوى نضالية أكبر ومن قدرة على التحرر والانطلاق أشد وامتن ؟ ان من البديهيات التي ينبغي ان نصدر عنها في تفكيرنا القومي ان القضاء على الآفات التي تشكو منها كل دولة من الدول العربية لا يكون الا عن طريق عمل عربي موحد ، ولا يمكن ان يتم بجهود كل دولة من الدول على انفراد . فالنضال ضد الاستعمار لا يجدي الا اذا كان نضالاً عربياً موحداً . ومحاربة الامراض الاجتماعية لا تتم الا عن طريق عمل عربي واحد . وسننتظر الى الابد ان نحن اردنا ان يصبح كل صفر بمفرده واحداً ، فهو لن يكتمل الا عندما يجتمع الى الاصفار الاخرى — ان صح اننا امام اصفار ، لا امام اجزاء من الوحدة ، كما يقول الاستاذ الحصري .

ثم يبلغ التفكير المنطقي اشده عند الاستاذ الحصري عندما يعرض لتلك المسألة التي أثارهـا الاستاذ فتحي رضوان في محاضرة القاها بنادي نقابة الصحفيين بالقاهرة ، عنوانها « من أنا ومن انت ؟ » . وعن طريق مناقشته لاقوال عـدد من المفكرين في مصر اشتركوا في مناقشة هذا الموضوع بعـد ذلك ، يصل الاستاذ الحصري الى القصد الاول من كتابه . اذ يدحض مزاعم القائلين بـأن عرب مصر ينبغي أن يعنوا بمصر اولاً ، مبيناً أن شعارهم ينبغي ان يكون على العكس : « العروبة اولاً » . وهو في هذا المجال يفتضح اموراً خطيرة ، ويكشف عن نقائص التفكير العربي لدى عدد من رجالات العروبة . وهو لا يفتضح ذلك بقصد التجريح والتهجم ، وإنما يفتضحه ايماناً منه بما لايضاح الافكار من قيمة وشأن ، وثقة منه بأن هؤلاء المفكرين سائرون لا محالة في طريق التفكير السليم الذي يقودهم الى القول : العروبة اولاً . ونحن الذين شهدنا بزوغ التفكير العربي في مصر منـذ مراحله العملية الاولى حين كنا طلاباً في كلية الآداب بين عـام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٦ ، وحين كنا نعمل مع اخواننا الطلاب العرب في مصر على توضيح كثير من الحقائق حول الفكرة العربية ، ندرك تمام الادراك ما في نقد الاستاذ الحصري من صواب ، وما في رجائه ايضاً من صدق . ونرى ان عرض الامور هذا العرض الصريح والأخوي معـاً هو الموقف القومي الصادق الذي ينبغي ان يقفه كل مخلص للقضية العربية .

إنه يبين للأستاذ عزام (وهو احد ثلاثة اشتركوا في مناقشة سؤال الأستاذ رضوان) بياناً لا غمغمة فيه ما في اقواله حول الفكرة العربية من اضطراب ومن سفح للآراء المتناقضة بعضها على بعض . فعبد الرحمن عزام يرى أن «مصر هي المدرسة الأولى للبشرية ، وان الله فضلها على العالمين». ويرى انها مركز إشعاع عالمي ، إذا غضبت رأيت الناس كلهم غضاباً واذا رضيت رضي الناس من جميع الألوان والافكار . وهو يجيب على السؤال الاصلي : « من أنا ومن أنت » . هذا الجواب الحائر : « نحن مصريون اولاً وعرب ثانياً ومسلمون ثالثاً » . وهذا الجواب يذكرنا بمـا كنا نسمعه من أكابر الأساتذة من احاديث عن العروبة لا يفرقون فيها بـين العربي والشرقي والمسلم . بل يذكرنا بما قاله احد العمداء في ايامنا ، مبشراً رابطتنا (رابطة الطلاب العرب) بانضمام فردين جديدين اليها ، هما طالبتان صينيتان سمع بقدومهما الى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول !

بل إن الأستاذ عزام ، كما يذكر الأستاذ الحصري ، يذهب مذهباً أغرق في الغموض حين يقول ان مصر لا تستطيع ان تعيش بدون سوريا « لأن الاستراتيجية الطبيعية لنا تقضي ان تعيش سوريا في ساحتنا الحيوية »! أوليس من حق الأستاذ الحصري ومن حقنا ان نعتبر العلة الأولى التي تقف دون تحقيق الوحدة العربية هذا الاضطراب الفكري في فهم القضية القومية؟ أوليس من واجبه وواجبنا جميعاً ان نعتبر رسالتنا القوميـة الاولى تربية الفكر الصحيح والفهم الواضح ؟ فهل بمثل هذا الايمان الغائم نأمل ان نبني وحدتنا ونرجو ان تستقيم جامعتنا العربية ؟

وبعد ، هذا قليل من كثير مما اورده الأستاذ الحصري لتوضيح الحقائق وجلاء المفاهيم . ونحن نسيء إلى عمله دون شك حين نعرضه مجزوءاً مخروماً على هذا النحو . غير اننا وجدنا من واجبنا ان نشير بالبنـان الى بعض الأفكار التي وقف عندها والتي يجدر بكل عربي أن ينعم النظر فيها .

وإن كان لنا عند الاستاذ الكبير رجاء ، فهو ان يقدم لنا الشطر الثاني من أفكاره ، وهو الشطر الذي يكمل ما يكتبه دوماً عن القضية العربية .

ونعني به ذلك الجانب الذي يهب لدعوته العربية هذه مضموناً إيجابياً ونضالياً، إلى جانب هذا المضمون الفكري الغالي، وذلك عن طريق الربط بين القول بالوحدة العربية وبين القول بالاصلاح الاجتماعي والانقلاب على الاوضاع الفاسدة . فالعمل للوحدة العربية يكون اول ما يكون دون شك بتوضيح الأفكار ورسم صورة نيرة لايمان عقلي عميق . غير أنه يكون الى جانب هذا ببيان الاتصال التام بين العمل للوحدة العربية وبين العمل لتحقيق انقلاب اجتماعي يقضي على الاستثمار الشائع في البلاد العربية ويحرر الفرد العربي من إسار أوضاعه الاجتماعية السيئة . فالعربي عندنا مغلول القوى مشلول المواهب بالظروف الاجتماعية السيئة التي يرزح تحتها . وتخليصه من هذه الأغلال هو الذي يؤدي إلى تفتح فكره وإيمانه . واعداء الوحدة العربية ليست هي الافكار المغلوطة التي نملكها عنها فحسب ، وانما هي ايضاً تلك الآفات الاجتماعية التي تفسد النفوس وتقتل القوى وتجعل طاقات الامة العربية مهدورة ضائعة . ولهذا فلا عجب ان رأينا أن اعدى أعداء الوحدة العربية هم اولئك الذين تروقهم الاوضاع الحالية والذين يعيشون على حساب الفساد الشائع والتأخر الاجتماعي القائم، بينما أنصارها دوماً هم اولئك الذين يطمحون الى انقلاب في الوضع الاجتماعي يطلق القوى العربية من عقالها .

دمشق **عبدالله عبد الدائم**
كلية التربية بالجامعة السورية

رسالة المفكر العربي

تأليف الدكتور فايز صايغ

منشورات مجلة الاحد ، بيروت ـ ١٢٠ صفحة

•

كثيرة هي المشكلات التي يجابهها عالمنا العربي في مختلف شؤون حياته ، وفي مختلف اقطاره .

ففي الحياة الاجتماعية مشكلات الفقر والمرض والاقطاع والاجرام واللاجئين . وفي الحياة السياسية قضية الصلة بين المواطن والحاكم ، وازمات الحكم واختلاف الاحزاب وتضارب الفلسفات العقائدية ، ومطامع الاستعمار . وفي الحياة الاقتصادية مشكلات الانماء والري والمواصلات واستقلال النقد . وفي الحياة الفكرية مشكلات التعليم والامية ومشكلات اللغة في قضية الفصحى والعامية وفي المصطلحات الحديثة .

ولكل قطر مشكلاته الخاصة به ، ومشكلاته في علاقاته بسائر الاقطار العربية .

ولا تكاد بعض الحلول الآنية توضع لعلاج أجزاء من هذه المشكلات، حتى تكون المشكلات الاخرى قد تضخمت وتعقدت وتوالدت ..

واذا كان على المفكر العربي في الاحوال العادية واجب الاسهام في معالجة قضايا وطنه ، فان ما بلغه المجتمع العربي اليوم من تعقد الخصائص والمميزات وما يجتازه من مرحلة بالغة الدقة والحرج، يفرض على كل مفكر فيه ان يهب فكره بتضحية وسخاء وحماسة ليعالج مشكلات وطن يسير نحو مستقبل غامض ، في تخبط وقلق .

هذا ، ولا ريب ، ما دعا الدكتور فايز صايغ إلى ان يهيب بالمفكرين إلى ان ينهضوا برسالتهم نحو الفكر الذي يمثلونه ، ونحو وطنهم الذي هم ابناؤه ، فنشر كتابه « رسالة المفكر العربي » الذي كان من اصدق المحاولات العلمية التي تدرس احوال الواقع العربي ومظاهر التبدل فيه .

طرأ على حياتنا تغييرات وتطورات مختلفة، نتيجة لاتصالنا بالغرب واتصالنا بالعلم ، كما طرأ على اوضاعنا السياسية تعديلات مختلفة عما كانت عليه ايام العثمانيين. ونحن نقف اليوم في حاضر قلق نتطلع الى ما نحن مقبلون عليه من احداث يحملها الينا الغد ، وقد نقررها بأنفسنا اذا عقدنا العزم على ذلك واثبتنا وجودنا ووضعنا خطوط مستقبلنا بأيدينا .

ازاء هذا الوضع الراهن بمشكلاته وتطوراته ، وقبيل مصير غامض يقترب شيئاً فشيئاً من عالم الواقع ، لا بد للعقل العربي من ان يقوم بعملية فكرية ، شاقة ، جريئة ، يريدها الدكتور صايغ « عملية إعادة النظر في مفاهيمنا وتصوراتنا وردودنا التقليدية ، عملية تحليل الواقع العربي الراهن على ضوء طبيعته المستجدة ، وتفهم التحديات الناشئة عنه تفهماً واقعياً ، متطوراً نامياً ، يتناسب مع طبيعتها المتبدلة ، وعملية وضع مخطط شامل لسياق الحياة العربية في عهدها الجديد، مستوحى من الواقع الراهن ومقتضياته . انها عملية فكرية ثورية ، عملية هدم وبناء ، عملية تجديد .

إنها دعوة جليلة الخطر تتلاءم مع خطورة الوضع القومي في العالم العربي ، من ناحية، وتتلاءم مع عمل المفكر من ناحية ثانية ، وبلادنا أحوج ما تكون اليوم إلى المفكر الذي يؤدي زكاة فكره لوطنه في هذه اللحظات الخطيرة التي نقف فيها امام مفترق تتشعب منه طرق مختلفات، تزيد الواقفين حيرة وتردداً وضعفاً .

إننا لنعجب كيف ان كثيراً من الكتب الصادرة في هذه الأيام ، في عالمنا العربي ، لا يدل محتواها على تاريخ صدورها،

ولا يصور موضوعها جانبا من جوانب حياتنا . إنك تجد فيها عوالم وأناساً لا يمتّون إلى واقعنا الا بما تمت قارة الى قارة، وماض الى حاضر. اما مشكلات الفرد العربي التي تعترضه صباح كل يوم اذا ما أقبل على عمله ، ومساء كل يوم اذا ما آب الى بيته، اما مشكلات المجتمع العربي في علاقة افراده بعضهم بعضاً ، اما مشكلات الوطن تجاه اوضاعه الداخلية الاقليمية، وتجاه علاقاته الاخوية في العالم العربي ، وتجاه علاقاته الخارجية بين دول كثيرة متزاحمة . اما هذه القضايا التي تقرر مصيرنا كلنا كناس نعيش كراماً اولا نعيش في مستقبل قريب، فهذه موضوعات يترك المفكرون لغيرهم أمر معالجتها ، و «غيرهم» هذه قد تعني رجال السياسة ، وقد تعني رجال الشارع ، وكثيراً ما تعني الظروف الطارئة والأحوال المرتجلة .

.. حتى كان هذا الكتاب «رسالة المفكر العربي» مصباحاً يضيء ظلمات في كلمات. ونحن في حاجة ماسة إلى مصابيح كثيرة تنير سبيلنا وتضع المفكر أمام تبعاته تجاه وطنه كمفكر وكمواطن وتدفعه دفعاً إلى ان ينهض بعبئه كاملاً ، والا اتهم بالتقصير ، والتقصير في اللحظات الحرجة هو الخيانة بعينها .

ولما كانت مشاكلنا القومية قد تضاعفت وتشابكت فقد أصبحنا لا نستطيع على رأي الدكتور صايغ «اذ ننصب على حقل واحد من حقول مشاكلنا القومية ونحشد نشاطنا في سبيل معالجته أن نعلق المشاكل الأخرى ونضعها على الرف او نرجىء اتخاذ موقف واضح عنها . فواقع التشابك بين مشاكلنا يحظر علينا مثل هذا التجريد في النظر، كما يحظر علينا عزل احدى المشاكل عن الاخريات في سياق العمل » .

ويرى مؤلف «رسالة المفكر العربي» ان اسهام المفكر العربي لا ينبغي ان يتم عن طريق الجهد الفردي ، فلا بد اذن من ابتداع تصور جديد لمؤسسة فكرية توجيهية تضم رجال الفكر الممتازين المنتجين وتكون مصدر خلق للتوجيه واداة بث له. وينبغي ان تتنزه عن أي شكل من أشكال الارتباط بالهيئات الحزبية السياسية القائمة .

لا ريب ان تعاون رجال الفكر وتعرفهم إلى اتجاهات كل منهم وتبادل الفائدة من خبرات بعضهم بعضاً بحيث تكمل معرفة فئة معرفة اخرى، وبحيث يلتقي الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحقوقي ، ويلتقي المؤرخ والفنان والفيلسوف ، فتغنى المواهب وتتنوع وينشأ نوع من الشمول في دراسة مشاكلنا القومية ، اقول : لا ريب ان تعاون رجال الفكر على هذا النحو مفيد ومثمر ، غير انني لا اذهب الى ما ذهب اليه الدكتور صايغ في وجوب ضمهم جميعاً في جمعية فكرية تعقد اجتماعات وتؤلف لجاناً ، فقد اعطت التجارب الكثيرة المتتابعة أجوبتها الحاسمة على مثل هذه المحاولات ، فان طبيعة امزجتنا وطبيعة هذا العمل الجذري العميق لا تعطيان شيئاً مجدياً في عقد الجلسات والمؤتمرات. وقد جربنا المؤسسات العامة في أمر اسهل من مشكلات القومية ، جربناها في تجديد لغتنا، فأنشأنا المجامع اللغوية العديدة التي ما لبثت بعد عشرين سنة ان اصبحت مباءة للعجز اللغوي.. وفي الوقت نفسه قامت محاولات فردية فأعطت أكثر مما أعطت المجامع. وإن اعظم الحلول واعمق الفلسفات واصدق المعالجات عندنا وعند الآخرين، قديماً وحديثاً انما ظهرت نتيجة المواهب الفردية ولعملها المستقل الهادىء العميق. ولم يكن عمل اللجان ، يوماً، في جلساتها الا ان تناقش جهوداً قد تمت ، وقد يجوز فيها عندئذ بعض التصحيح والتحوير. اما الابداع فذلك من شأن العبقريات التي تخلو الى نفسها ، واكاد اقول ان اوضاعنا المعقدة المتشابكة امست في حاجة الى معجزات عقلية لا إلى حلول تنشأ حول الموائد !

لقد احسن الدكتور صايغ في إهابته بالمفكرين الى ان يؤدوا واجبهم، في الصراع القومي ليدلوا ابناء امتهم على طريق الخلاص لبلوغ مصير عزيز ولكن ليدعهم يفكرون مستقلين، وليقدموا بعد ذلك ثمرة فكرهم الى المجموع ليدرسه ويفهمه ويناقشه، الى ان يظهر الرأي الصحيح اخيراً . وآخذ المثل من الدكتور صايغ نفسه ، فقد نشر دراسته في كتاب اذاعه على الناس ، وقد رأى فيه كثير من القراء غذاءً فكرياً ممتازاً ، جديراً بأن يكون نقطة انطلاق نحو ابحاث اوسع وأشمل في آفاق القومية . وأكبر الظن انه لو عرض هذه الدراسة على لجنة من اللجان لأضاعت وقتها ووقته في كلام طويل حول زوايا جانبية من البحث قد تضيع معه الغاية الرئيسية من الدراسة .

أخالف رأي الدكتور فايز صايغ في تأليف جمعية تضم المفكرين على اختلاف اختصاصاتهم لمعالجة شؤوننا القومية ، لانني لا ارى فيها جدوى . والواقع ان دون تكوين هذه الجمعية اهوالاً ... من يختار اعضاءها ؟ وما هي الاسس التي يُختارون عليها ؟ بل من هو المفكر الذي يعنيه الدكتور صايغ ؟ وهذا السؤال الاخير كان على المؤلف ان يجيب عنه،

لما يكتنف كلمة « المفكر » من غموض ولما يتعلق بها من طفيليات. ليست كلمة « المفكر » او رجل الفكر من الكلمات المحددة ككلمة طبيب او مهندس او مدرس ، فقد تداخلت مفاهيم الكتّاب لهذه الكلمة حتى اختلط المفكر الحقيقي بغيره ممن له صلة ما بالفكر واهله. فما هو الحد الادنى الذي ينبغي توفره في الشخص ليصبح بعده رجلاً من رجال الفكر . ولا ريب ان توضيح مفهوم المفكر، في كتاب عن الفكر العربي، على جانب كبير من الاهمية، وخاصة اذا ظهر في ثنايا الكلام، وبصورة غير واضحة ، ان الدكتور صايغ قد يعني بالمفكر المهندس والطبيب والرسام والموسيقي وغير هؤلاء من اهل الفن ورجال الاعمال !

ولما كان الكتاب عن رسالة المفكر العربي ، وكان المفكر العربي نفسه جزءاً هاماً من كيان العرب ، فقد كنت اتوقع ان يتناول المؤلف مشكلات المفكر العربي وعيوبه ، كما درس مشكلات الوضع العربي. فالحيرة والغرور ، والجمود ، والانزواء صفات تطبع كثيراً من المفكرين العرب في هذا العصر ، وتفسد عليهم تفكيرهم وتحول بينهم وبين ان يحظوا لدى الجمهور بالثقة والاحترام .

ليدرس كل مفكر جانباً من قضايانا القومية من ناحية اختصاصه وخبرته ، وليقدم نتيجة درسه إلى جمهور القراء . وليدرس مؤلف كتاب « رسالة المفكر العربي » بعض الاسئلة التي اثارها في بحثه وتركها من غير جواب ، ولينشر دراسته على الناس ، وعندئذ يكون قد ادى حقاً جانباً هاماً من جوانب رسالة المفكر العربي .

بهيج عثمان

قبل فوات الاوان

بقلم الدكتور اديب نصور

دار العلم للملايين ، بيروت - ٢٢٣ ص

•

« قد يقول قائل : ولكن من يضمن حرية القول للمفكرين . واجيب: ومتى كان المفكرون الكبار واصحاب الرسالات ينتظرون ان تهدى اليهم الحرية ليقولوا ؟ اذا وجد المفكر الاصيل فانه يمنح نفسه الحرية الكاملة ويقول ما ينبغي ان يقال . » اديب نصور

تميزت الحياة السورية العربية، في السنوات السبع الاخيرة، بتعاقب الحوادث العنيفة فيها اكثر من اي بلد عربي آخر . وتميز المواطن السوري العربي انه وقف خلال هذه الاحداث مشدوهاً متعجباً بادىء الامر ، حيادياً متفرجاً في آخره ، يتصف بالانفعال اكثر مما يتصف بالفعل ، ويتريث ريثما تنتهي هذه القوى من لعبتها مكتفياً لنفسه بالحياد .

وكتاب الدكتور نصور « قبل فوات الاوان » الذي يتناول هذه الاحداث السورية بين ١٩٤٨ و ١٩٥٥ بالدراسة والبحث يستوقفك اول ما يستوقفك فيه عنوانه: هذا العنوان الذي يوجز احداثاً كبيرة في كلمات قليلة . فهو يوحي اليك بحس الزمن والتاريخ، وانك جزء منه وانه جزء منك . فانت تطل منه على الماضي القريب البعيد ، وانت مع ذلك تطل على المستقبل بما فيه من امكانيات يتوقف تحقيقها عليك . وفضيلته انه لا يجمد الحاضر من اجل الماضي ، بل يخلق فيه قابلية للتوثب والفعل . فالحاضر يبلغ اوجه خلال المستقبل الكامن فيه ، الذي يتيح للفرد ان يحول امكانيات المستقبل الغنية الى قسم حي منه اما برفضها او بقبولها .

والكتاب يقسم الى ثلاثة اقسام : الاول كتب قبل الاحداث والثاني في غمرتها والاخير بعدها .

قال الدكتور نصور في مقدمة كتابه : « وان كانت هذي الدراسات والمطالعات قد كتبت او القيت في ظروف مختلفة فانها تدور كلها حول الخير العام ، وقد صيغت ضمن اطار الاحداث التي حدثت في السنوات السبع الاخيرات ، وان وراءها نظرية سياسية واحدة تحدوها روح واحدة وهذا ما يبرر جمعها بين دفتي كتاب » . والدكتور نصور لم يبالغ في قوله هذا . فالكتاب برمته يصدر عن ايمان عميق بالدمقراطية كافضل نظام للمجتمع ، ومعرفة كاملة بقواعد الحكم الديمقراطي واساليبه وشروط تحقيقه . والحقيقة ان كل نقد في الكتاب للمساوىء الواقعة او التي وقعت ، ينبعث عن اقتناع عقلي اصيل مخلص بصلاح الحكم الدمقراطي . ولا يصعب على القارىء ان يتبين الى جانب ذلك ان الكاتب يصدر عن ثقافة سياسية متينة ، ويجول على مستوى التفكير السياسي العقلي في افق عال رفيع غير عادي بالنسبة لادبنا السياسي. ثم ان الدكتور نصور لم يقف وقفة المتفرج من الاحداث السورية التي يكتب عنها بل عاش هذه الاحداث، كما يعيش احداث بلاده، كل مفكر مؤمن مخلص ، وانعكست آثارها في شعوره بقوة وعنف .

نقرأ في موضع من الكتاب هذا القول : « ليس في ميدان السياسة السورية اليوم من يمثل النظرية الدمقراطية بعمق وشمول وقوة تعبير كما يمثل النظرية الماركسية مثلاً بعض اصحابها » . وهذا الحكم - وهو حكم صحيح - ان دل على شيء فعلى الفراغ الفكري والواقعي الذي يعيش فيه ما نسميه بالدمقراطية السورية . فالماركسي مثلاً حين يصدر في سلوكه وتفكيره عن فلسفة شاملة جامعة كلية تقدم له حلاً لكل مشكلة من المشاكل، يقابله الدمقراطي العربي او القومي العربي حائراً متردداً مرتبكاً ليس لديه مثل تلك الفلسفة الشاملة او النظام الكلي ليستوحي منهما . ونقرأ في موضع آخر من الكتاب « والحكم الدمقراطي في سوريا مهما كانت هناته واخطاؤه وثغراته هل عرفنا حكماً آخر افضل او اكرم او اسلم منه في الربع القرن الاخير او

في العهد الوطني الخالص بعد الجلاء » . فاذا كان الدكتور نصور يؤمن مثل هذا الايمان بالديمقراطية ، ويدرك في الوقت ذاته فشلها في البلاد العربية لحق لنا السؤال: ترى لماذا انتهى النظام الدمقراطي بيننا الى مثل هذا الوضع ؟

من خصائص الكتب الغنية بالفكر انها تثير اعوص المشاكل وادقها . وهذا في رأيي احدى الميزات التي يتصف بها كتاب الدكتور نصور . فمشكلة الحكم الدمقراطي في بلادنا هي لا ريب احدى هذه المشاكل الاساسية . غير ان الذي يبدو لي ان الكتاب يتضمن تشديداً على شكل الحكم الدمقراطي اكثر منه على جوهره . ويدخل في الشكل اداة الحكم - اي حكم - وجهازه . ويدخل في الجوهر الامة والمجتمع والفرد في المحط الاخير . وعلى ذلك فنحن نجد انفسنا شاخصين بابصارنا صوب قمة الهرم واطاره اكثر من قاعدته واساسه . انا لا اقصد ابداً ان اقول ان الدكتور نصور اهمل الناحية الثانية . بل اننا نظلم الكاتب والكتاب لو ذهبنا الى مثل ذلك . فالدكتور نصور يؤكد في اكثر من موضع من كتابه : « الاصلاح الحقيقي يبدأ مع الفرد في عقل الفرد وقلب الفرد » و « الخلاص في تكوين نفس عربية جديدة ، نفس قد تكون وجدت قبل الآن في افراد قلائل ولكنها لم توجد حتى الآن كنفس قومية شاملة » وفي موضع آخر : « انا اطالب بالضمان الاجتماعي واطالب بتحقيق العدالة الاجتماعية باوسع معانيها . الخبز يجب ان يؤمن لجميع الناس والغذاء الكامل والكساء والمأوى اللائق والدواء والعلم بلا استثناء . ويجب ان يرتفع مستوى الحياة الى اعلى الدرجات » ومثل هذه الاراء القيمة كثيرة منتثرة في الكتاب . ومع ذلك فجهاز الحكم ومشاكله يلقى عناية اكثر على يد الكاتب . وانا اشدد بدوري حيث اتجه تشديده بل حيث يتجه تفكيرنا السياسي العربي بصورة عامة . فنحن على حد تعبير فلسفي نؤكد بالدرجة الاولى فكرة «الشيء بذاته» ، ونضع في المرتبة الثانية الواقع الحي الذي تعيش الفكرة في نطاقه ، وتتفاعل معه ، وتتأثر منه وتؤثر فيه . وفي منطق الحياة عكس هذا الترتيب . هكذا مثلاً لو قارنا فكرة الدمقراطية المثلى كفكرة ذاتية مستقلة ، بوجودها العربي لاتضح لنا الفراغ الرهيب الذي تعيش فيه هذه الفكرة ولما وجدنا من الحياة الدمقراطية سوى شكلها او اطارها . وقياساً على ذلك نشدد في مجتمعنا العربي على اشكال المؤسسات واطاراتها اكثر مما نشدد على روحها والحقيقة الحية الفاعلة التي تعمل فيها على مستوى الوجود . وكم من مؤسسة عندنا ماتت لانها ولدت بشكل اطار فقط . او قل انها ولدت مائتة .

فنحن وجدنا في اطار الجامعة العربية مثلاً - وهو مجرد شكل يستمر بحكم الوجود لا اكثر تحقيقاً لنزوع الروح العربيه نحو وجود افضل واكمل واقوى . فاذا بالوجود الحي يضعنا يوماً بعد يوم ، ووجهاً لوجه ، امام اطار اجوف وامام خيبة مريرة .

ولنأخذ بعض المبادىء الاساسية التي ترتكز اليها الدمقراطية . التمثيل الشعبي الذي يفصح عن ارادة الاكثرية الناخبة . هل يمكن حقاً ان نتحدث عن تمثيل شعبي صحيح صادق في مجتمع اقطاعي ؟ اي انسان يمثل اي انسان في مثل هذا المجتمع ؟ واذا فقهنا حقيقة مثل هذا التمثيل الا نرى انه يعدم ذاته بذاته وينقض هدفه بحكم اسلوب صالح مثالي أسيء استعماله ؟ ولو اخذ المجلس قراراً بتوزيع الاراضي محاربة للنفوذ الاقطاعي ، فان الاقطاعية تظل مع ذلك حية لانها ليست مجرد نظام سياسي او اقتصادي او اجتماعي . انها بدورها حالة عقلية ونفسية قبل كل شيء آخر .

والحرية ! ... ميزة الجمهورية الكبرى كما يقول الدكتور نصور بحق « حرية المواطن في العيش وطلب السعادة . حريته في ابداء الرأي وتصريف العمل . حريته في اختيار نوابه ومراقبة حكامه بواسطة النواب » هذه الحرية التي وصفها الكاتب ابلغ وصف في القول الذي استشهدت به في مطلع هذا المقال ، والتي نجلها ونضعها في حيز المقدسات ، هل نستطيع حقاً ان نفصل بين الحرية كفكرة مقدسة والشروط لممارسة الحرية حتى لا تنقلب الى استعباد القوي للضعيف ؟ وعلى ذلك فوراء الحكومات واشكالها واجهزتها الانسان الذي يعطي معنى لكل شيء خلال ما ينعكس من عالمه الروحي العميق على العالم الخارجي الذي يتفاعل واياه . الدمقراطية العربية الصحيحة ... انها الفرد العربي الجديد الذي يسعى الدكتور نصور وكل مفكر عربي مخلص لخلقه والذي لم يوجد بعد . فالمشكلة أعمق وابعد واعقد بكثير من مجرد مشكلة جهاز الحكم وشكله الامثل .

وعلى هذا الصعيد من النقد يبدو لنا ان الكتاب يثير اسئلة اخرى كثيرة في الاذهان في طليعتها علاقة الاحداث والانقلابات السورية بكارثة فلسطين . فالكتاب الذي يحلل هذه الاحداث يبدو خلواً من اي بحث حول هذه المشكلة الاساسية وصلتها بالانقلابات ، وتأثيرها على رجالها مع انها

جورج طعمه

- البقية على الصفحة ١٠٣ -

النتاج الجديد

– تتمة المنشور على الصفحة ٤٧ –

كانت دون ريب بمثابة الشرارة التي فجرت المخزون من الخيبة المريرة والالم والنقمة . والنظام الدمقراطي الذي تهدم عقب الانقلاب الاول لم يكن بدوره مسؤولاً عن الفشل والكارثة ؟ وهو تساؤل يصح لا بالنسبة للحكم في سوريا فحسب بل وفي جميع البلاد العربية . ومشكلة الحكم في سوريا هل يمكن عزلها وفصلها عن الحياة العربية بكاملها وعن مشاكل الوطن العربي الاكبر – وهو الاطار الطبيعي – الذي لا يمكن فهم مشاكل اي بلد عربي الا ضمنه ؟ ولقد اشار الكاتب في آخر الكتاب الى هذا الامر بشكل مختصر . ولكنه لو وضع تحفظاً في مقدمة كتابه يستدرك هاتين الناحيتين ، ويشير الى انه يقصر بحثه على الاحداث السورية ضمن سوريا فحسب لكان افضل . واننا لنؤمل ان يفعل ذلك في طبعة مقبلة لما نتوقع للكتاب من رواج جدير به .

والكاتب في حرصه على تثبيت دعائم الحكم الدمقراطي يذهب الى التاريخ الاسلامي البعيد ليجد شواهد فيه تؤيد موقفه . وهذا ما فعله في بحثه « مشكلة الحكم على ضوء التاريخ العربي » . ولقد اجاد كل الاجادة في وصف « بيعة السقيفة » وتحليلها وسرد مناقشاتها في اسلوب خطابي بليغ ، وتصويرها كمجلس شورى . لكن هذا الحادث لم ترسخ آثاره في اغوار الحياة الاسلامية . ولم يمتد فعله اكثر من خمسة عشر عاماً على الاكثر انتهت بمقتل عثمان وخلافة علي . ثم تطور نظام الحكم في الاسلام خلال مئات السنين التي عاشها تطوراً معاكساً تمام المعاكسة . وظل هذا الحدث الجزئي في صدر الاسلام حدثاً جزئياً منعزلاً ، عاش كرمز ومثال لا كقاعدة ثابتة نشأ عنها نظام حكم ديمقراطي .

وذهب الدكتور نصور في آخر بحث من الكتاب « اما بعد » الى انتقاد الفقرة الثانية من المادة ٩٤ من دستور سوريا لعام ١٩٥٠ التي نصت : « لا يجوز ان يحل مجلس النواب قبل مضي ثمانية عشر شهراً من انتخابه » . فلو ان مجلساً على حد قوله « لم يستطع ان يعطي البلاد حكماً مستقراً مسؤولاً ، هل تعيش البلاد ثمانية عشر شهراً بدون حكومة مسؤولة وبدون قرار » ، ولكن هب ان مثل هذا المجلس قد حل واعيد مجلس مماثل تماماً مع تعديل طفيف لا يغير شيئاً من جوهر الامور ترى اتحل مشكلة الديمقراطية ومشكلة جهاز الحكم ؟ الم يجابه كرومويل مشكلة مماثلة بعض الشيء ؟ كل ذلك يحدو بنا الى الظن ان الوقت لم يحن بعد لأن نحكم احكاماً نهائية مطلقة على الاحداث الا ضمن تحفظات كثيرة .

الفكر والسياسة : في نوع من الجزع الروحي العميق يتساءل الدكتور نصور : « اين يجري البحث عن الحقيقة في بلاد الشام ؟ اين تدرس قضايا الروح وقضايا العقل ومشاكل الاجتماع والسياسة والاقتصاد بروح التجرد والاخلاص ؟ » ان الذين يعرفون قحط الواقع الذي يتساءل عنه الكاتب ، والذين يحسون شواظ رياح الصحراء تهب على بلاد الشام فتحيلها الى امتداد للصحراء ، يدركون وحدهم فقط اية مرارة ينطوي عليها هذا التساؤل . « مرت عاصفة فلسطين ولم تخلق في عالم الفكر سوى رسالة كتبت على عجل » ... « والغي دستور ووضع دستور وعلق دستور ولم نسمع كلمة المفكرين في نظام الحكم وما يلائم طبائع العرب وحاجات الزمان .. » و « حدثت الاحداث الجسام فما حركت مفكراً ولا اوحت بنظرية او رأي صحيح » .

وفي مكان آخر من الكتاب : « ان الفكر السوري لم يلعب حتى الآن دوراً بارزاً في حياتنا العامة ولا استطاع ان يحتل مكانه الطبيعي في نظام الاشياء ، وهو مكان الدماغ من الجسم ، ولا عرف الناس له هذا المكان » .

هكذا يأخذ الدكتور نصور على النخبة المثقفة في مناقشة محكمة حيادها الفكري والعملي وصدوفها عن ميدان السياسة . ولا تستطيع هذه النخبة الادعاء ان الحرية هي ما ينقصها « والمفكر الاصيل – على حد قوله – يمنح نفسه الحرية الكاملة ويقول ما ينبغي ان يقال » . وهو اذ يناقش هذا النقص في حياتنا السياسية الفكرية يشدد على ايمانه بالعقل « مرشداً وهادياً ومنظماً لحياة الناس » ، وعلى اسبقية الروح والخلق في العمل السياسي ، اللذين يستطيعان وحدهما رفعه من آفاقه الضيقة « فالعمل الاساسي المجدي يجب ان يكون عملاً اخلاقياً قبل كل شيء ، عملاً روحياً يقوم على الفضائل الشخصية لا على نظرات المصالح ، على الواجب لا على مجرد تحسين العيش » هنا تأتي مسؤولية النخبة المثقفة قومياً وفكرياً وسياسياً . فظهورها الفعلي للوجود ضرورة ملحة . وعملها هو السبيل الوحيد لاعتاق الشكوى من حدود الذاتية الضيقة الى العمل الخلاق . فالشكوى اذا ظلت سجينة ذاتها انتهت الى شبه اختناق روحي هو في طليعة اسباب العقم الذي نشكو منه . وقد تكون المرحلة الحاضرة في حياة العالم العربي من اكثر المراحل بلبلة وابهاماً ؟ وهل واجب الفكر ان وجد وكان واعياً لذاته الا ان يزيل الابهام . قال المؤلف : « مشكلة الحكم لا تعالج معالجة مجدية في مقال عابر او حديث مختصر . وإنما تحتاج الى ادمغة كثيرة تتصرف للبحث بضع سنين لتخرج علينا بدراسة جدية ورأي حكيم » .

ما اكثر النواحي الغنية بالفكر التي يمكن الكشف عنها في كتاب الدكتور نصور . ان مؤلف كتاب « قبل فوات الاوان » منح نفسه الحرية الكاملة وقال ما ينبغي ان يقال . ولشد ما تتضح جرأته وصراحته عند معالجة مشكلة الازدواج في الحكم السوري بين السلطتين المدنية والعسكرية ، ونقده للحكم الدكتاتوري . كل ذلك في اسلوب ادبي رفيع بليغ . « فقيصر واهل الرأي » مثلاً تظل من ابلغ ما كتب في ادبنا السياسي وما اوحته الاحداث . لكن الكتاب اكثر من كتاب حول احداث معينة . انه بحث فكري عقلي في الحياة السياسية العربية ومشاكلها الاساسية . ونشير فوق هذا وذاك الى المحبة والايمان اللذين يشعان بين سطور الكتاب . تلك المحبة التي جاء في وصفها انها : « تتأنى وترفق ، ولا تغضب ولا تحسد ولا تنتفخ ، ولا تطلب ما لنفسها ولا تظن السوء . ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق . » والتي جعلت الكاتب يقول : « من احب وطنه احبه على علاته واحبه حتى الموت » . وذلك الايمان الذي بغير وجه العالم مستشهداً اكثر من مرة بالقول البليغ : « ان العالم لم يغلب بالكيد والدهاء وانما غلب العالم بالايمان ... »

« الايمان ... آه لو استطاع امرؤ ان يؤمن بشيء ويكتسح الدنيا . »

جورج طعمه